بائع القلوب

حدثنا جهينة الأخبار قال: هبطتُ في بعض أسفاري مدينةً من مدن الغرائب، فسمعتُ أن بالمدينة ساحرًا قديرًا يبيع القلوب قديمها وحديثها، ويجتلبها من حيث كانت لَمن يبذل له الثمن الذي يريد. ولقيني بعض سماسرته الكثيرين فقال لي: ألا تَرِدُ على الرجل مع الواردين فتشتري لك قلبًا من الطراز الذي يعجبك؟ فالقلوب عنده من كل طرازٍ والناس مُقبِلون عليه من كل صوبٍ، ولم يبقَ في المدينة أحدٌ غيرك لم يجرب حظه في هذه البضاعة العجيبة! فتعال جَرِّب أنت حظك فلعلك تحمد التجربة أو ترجع منها بنبأ طريف!

قال جهينة: فقلتُ للسمسار: إليك عني يا هذا! لا حاجة لي بقلبٍ آخر غير هذا القلب الذي لم أذممه ولم أحمده، ولا أكاد أحتاج إليه كله؛ أرأيتَ في وجهي أمارة على فتورٍ في الدورة الدموية فأنت تغريني بشراء قلبٍ آخر غير الذي ينبض في جانب هذه المعدة؟ لا، والحمد لله! ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وصدق الله العظيم.

قال جهينة: ومضت أيامٌ بعدها أيام وسنون تتلوها سنون، وطوَّفت في الشرق والغرب وعرفت من طبائع الناس وأبناء العالم ما لم أكن أعرف، وعلمت أن الإنسان قد يجوب من المدن ما يسعه فضاء الله، ويبقى في نفسه بعد ذلك فضاء يجهله ويضل فيه إذا نزل بين مَفاوزِه وبواديه، وكنت أجوب الأرض ولا أُلقي بالًا إلى ذلك الفضاء الذي أحتويه بين جنبي، فلما انثيتُ إليه راعني ما رأيتُ وهالني ما جهلتُ، وضحكتُ مني كيف كنتُ أرضى بقلبٍ واحدٍ أحمله ولا أكاد أحس به، وعلى قيد خطوات تاجر للقلوب يبيع للناس ما يرتضون! فقد عرَّفتْني الرحلة بعد الرحلة والتجربة بعد التجربة أن مَن

يعيشُ بقلبٍ واحدٍ إنما يعيش بغير قلب! وأن القلوب كالأحذية لا تصلح بفردةٍ واحدةٍ، وخيرٌ للإنسان أن يمشي حافيًا من أن يمشي بحذاءٍ ذي لونين!

ونذرتُ لله لئن عدتُ إلى تلك المدينة ليكونن بائع القلوب أول مَن أقصد من سكانها، وليكونن القلب الذي أنشده إلى جانب قلبي أول ما أشتري من بضاعتها. وكنتُ قد استخلصتُ لنفسي من تجارب الأيام أن القلوب في هذه الدنيا واحد اثنين: فإما قلب يُنسِيك نفسك وتُنسِيه نفسه، ويمتزج بقلبك فإذا هما شيء واحد لا ينفصل شطرٌ منه عن شطرٍ ولا تعرف له بداية من نهاية، ويجري في الوئام على مذهب القائلين أن الحب اجتماعُ نفسٍ كاملة من جزأين متشاكلين يتعاطيان السرور والحزن من مَعِينٍ واحدٍ. ففي مثل هذا الحب لا تُحسَب الذنوب ولا تُشكَر الهبات؛ لأن الإنسان كأنما يهب نفسه حين يهب صاحبه السرور الذي يستطيعه، وإنما ينتظر الشكر مَن يعتقد أنه يعطي كل شيءٍ ولا يأخذ شيئًا يعدل عطاءه، وليس يدوم حب على هذه العقيدة، بل ربما كان شعور المحب الصادق أنه يأخذ كل شيءٍ من حبيبه ولا يعطيه هو شيئًا يستحق عليه شكرًا.

وإما قلب يُتمِّم لك وجودك ويُكمل فيك «أنانيتك» ويستثير من قوتك ما كان خافيًا عليك ويُشبعك من إحساسك بكل جوانب نفسك، ويجري على مذهب القائلين أن ليس الحب أن تنمحي شخصيتان في شخصيةٍ واحدةٍ كما يهجس في خيال الشعراء، وإنما الحب أن تَكمُل كلٌّ من الشخصيتين بالاتصال بالأخرى، فتشتد الغيرة في الحب لاشتداد شعور الإنسان بنفسه، ويغتفر المحب كل شيءٍ إلا أن يُشارَك في ذرةٍ من عطف حبيبه.

وتخيرتُ بين الطرازين فاخترتُ الطراز الأول؛ لأنني عرفتُ فيما عرفتُ أن خير الكمال ما ينمو فيك دون أن تشعر به أو تقصد إلى طلبه، وكذلك ينمو الطفل الصغير وكذلك ينمو كل طفلٍ صغيرٍ في عالَمَي الأجسام والمعاني.

فلما نزلتُ بمدينة الساحر يممَّتُ دكانه نصًّا وما نفضتُ عني غبار السفر، فإذا هو أحفل ما رأيتُ وأعجب ما شهدتُ في الدكاكين؛ زحامٌ على الأبواب لا ينتهي حتي يعود كما بدأ، وقلوبٌ معروضةٌ لا يتماثل منها قلبان في الخصائص والألوان، فَمِن قلبٍ ناصعِ البياض إلى قلبٍ حالك السواد، ومن قلبٍ أحمر قانٍ إلى آخر أصفر فاقع إلى آخر لا لون له إلى آخر كعنق الحمامة يبدو في كل لونٍ! ومن هذه القلوب المحترق المتوهج والبارد المثلوج، ومنها الصحيح السليم والكسير المثلوم، وأسعارها غاية في الشذوذ لا تدري كيف يُقدِّرها الباعة والشراة؛ فهذا قلب محترق يكثر عليه الطلب ويغلو فيه البائع، وذاك قلب

كسير يعلو بقيمته على أضعاف ثمن الصحيح، وكلٌّ له آنية يُحفَظ فيها لا تشبه الآنية التي تصلح لغيره؛ فمنها ما يُحفَظ في صندوقٍ من الذهب، ومنها ما يُحفَظ في علبةٍ من الحديد، ومنها ما يُحفَظ في غلافٍ من الورق، ومنها ما يُحفَظ في كوبٍ من الماء، ومنها ما يُحفَظ في الهواء الطلق بلا آنيةٍ ولا وقاء، والناس على الدكان بين ذاهبٍ وآيبٍ يصيحون ويهتفون ويعطون ويأخذون وهم فرحون أو متفارحون!

فانتظرتُ حتى سكت اللجب وخفَّ الزحام وهدأ التاجر من حركة البيع والشراء، فتقدمتُ إليه فتلقاني ببشاشة الساحر الذي تعوَّد اصطياد القلوب، وقال: يلوح لي أنك قادم إلينا من بلدٍ بعيدٍ، فهل من طلبٍ نفيسٍ نخدمك فيه؟

قلتُ: في ذلك أتيت، ولا أطيل عليك فإنك قد مارست التجارة، وخبرت أصنافها وعرفت أوصافها فإذا ذكرت لك طرفًا من الصفة التي أريدها فقد أغنيتك عن الإسهاب في تفاصيلها، أليس كذلك؟

قال: أرجو أن أكون عند حسن ظنك، أتريد قلبًا؟

قلتُ: نعم، قلبًا يمتزج بقلبي وأنسى فيه نفسي ويُنسى فيَّ …

فلم يمهلني الرجل أن أُتِمَّ كلماتي الوجيزة، وضحك في شيءٍ من الإشفاق والسخرية اللطيفة، ونظر إلى صاحبه في الدكان … فلان! هذا طالبٌ جديدٌ للمستحيل الرابع … فهل عندك ما يرضيه؟!

فالتفت إليَّ صاحبه متهانفًا وهو يقول: لقد انقطع عَنَّا هؤلاء الطلاب منذ زمنٍ بعيدٍ، وما أحسبك إلا غريبًا عن المدينة! فانظر ما تقول واعلم أنك تروم منَّا مرامًا عسيرًا لا نقدر عليه ولا يقدر عليه أحد، أفلا يغنيك عن القلب الذي تنشده قلبٌ سواه من لونه، وإن لم يكن من صنف بضاعته؟ إن الذين سبقوك إلى هذا الطلب قد انتهوا بعد اليأس إلى القناعة بذلك، ووجدناهم راضين عن الصفقة أو مُكرَهِين على الرضا. فكن أنت مثلهم واطلب منَّا مثل ما يطلبون، إنك سترضى عن نصيبك إن شاء الله، أو إن شئت أن تُريح نفسك من عناء الامتحان بعد الامتحان والخيبة بعد الخيبة.

والتفت إليَّ الساحر وقال: لو جئتنا قبل الآن لخدعناك وزيَّنَّا لك من البضائع التي عندنا غير ما تصف، ولكنك جئتنا والتجارة رائجة والمطلوب أكثر من المعروض فلا حاجة بنا إلى خداعك. مُرْ بما تشاء من هذه الأصناف التي نبيعها، فإن الدكان وما فيها جميعًا بين يديك.

قلتُ: أحكي لك حكاية.

قال: حسن، هات حكايتك.

قلتُ: زعموا أنه كان في مدينة لندن تاجر يَدَّعِي القدرة على كل شيءٍ والاستعداء لتلبية كل مطلب، وزعموا أن ظرفاء المدينة كانوا يهزءون منه ويعبثون به ويتفننون في تعجيزه بالمطالب الغريبة النادرة، وهو لا يعجز ولا يني عن المحاولة والنجاح؛ فكان هذا يطلب منه فِيلًا في كذا من العمر، وذاك يطلب فاكهةً في غير أوانها، وغيرهما يطلب نبتًا لا يُغرس في بلاد الإنجليز، وهو يجيبهم واحدًا واحدًا ولا يزيد على أن يستمهلهم بضعة أيام أو أسابيع إذا أسرفوا عليه في الشطط والتعجيز، فجاءه ذات يوم مداعبٌ خبيثٌ يطلب إليه حقيبةً من البراغيث في أيامٍ قليلةٍ، وحسب أنه لن يقبل البيعة ولو أسنى له الثمن وبالغ في الترغيب، غير أن الرجل قَبِلَ كعادته وأرسل أعوانه في كل مكانٍ؛ ليأتوا له بحقيبة البراغيث في الموعد المحدود، فجاسوا في كل مكانٍ واحتالوا بما وسعهم من الحيلة على اقتناص هذه المخلوقات الصغيرة التي تشبه القلوب في سرعة التقلب والانتقال، فجمعوا منها عددًا عظيمًا وعادوا به إلى صاحبهم وأفرغوه في الحقيبة، فإذا هو لا يملأ منها إلا النصف ولا سبيل إلى الزيادة المرغوبة قبل انتهاء الموعد ... فأُسْقِطَ في يد الرجل، وَهَمَّ بالإقرار بالعجز والإذعان للفشل لولا أن خطر له أن البراغيث لا تعيش بغير هواء، وأن الفراغ الباقي في الحقيبة لا يقبل الامتلاء إلا اذا أراد الطالب براغيثه ميتة، وهو لا يريدها إلا حية تقفز وتلسع ...! وبذلك نجا من المأزق على غير قصدٍ منه وفاز بسمعة التاجر الذي لا يقول «لا» لمقترح عليه وإن تعسف في الاقتراح.

فضحك الساحر ثم قال — وهو يقبض بأصابعه على لحيته: حكايتك هذه ظريفة، أظنني فهمتها، فأنت تريد منَّا الآن أن نُبدِي لك من المهارة في جمع القلوب الشاردة ما أبداه ذلك التاجر العنيد في جمع البراغيث الطيارة ...؟ حسن، فاعلم إذن أننا سنفعل الطاقة وما فوق الطاقة وسنُرضيك جهد الرضا، وإن كان لا يخفى عليك أن القلوب أكثر شرودًا وأسرع طيرانًا من أطيش البراغيث ... حسن يا صاح، عُدْ إلينا بعد أيامٍ فستجد عندنا قصارى ما نستطيع في هذه الصفقة، وليتنا نستطيع أن نحتال لك بقلبٍ نصفه كما تهوى ونصفه الآخر من الهواء!

وانتظرتُ أيامًا ثم عدتُ إليه فلم يسرع إلى مقابلتي بتلك البشاشة التي رأيتها على وجهه في المرة الأولى. فأوجستُ شرًّا، ولكني دنوتُ منه وسألته سؤالَ مَن يتهيأ للانصراف، فأطرق قليلًا، ثم قال لي كأنما يخاطب نفسه: لقد أتعبتنا يا بنيَّ وكلفتنا ما لا نطيق، ولكني آمل أن يوافقك هذا القلب الذي صنعناه لك في مصنعنا بإشراف مهندسنا الأكبر ومخترعنا الأوحد ونطاسيِّنا المدرب في جبر الكسير وترميم العتيق من القلوب.

فابتدرته سائلًا: ألعله قلبٌ نصفه هواء؟

فقال: لا تعجل، بل هو قلب من عدة قلوب. جمعناه لك من كل خِصلةٍ شريفةٍ في القلوب التى لدينا، وأخذنا الإخلاص من جانبٍ والثبات من جانبٍ والجمال من هنا والذكاء من هناك، وأتلفنا مائة قلب ثمين؛ لنستصفي لك قلبًا واحدًا من خيرة ما فيها من الطيبات والشمائل الحسان. فعساه بعد هذا التوفيق والتنسيق يعجبك ويغنيك أو يقنعك بعض القناعة ولو إلى حين.

قلتُ: هذا يا سيدي مرقعة وليس بقلب! هذا ليس بقلبٍ واحدٍ ولا بِعِدَّة قلوب، وماذا أصنع يا ساحري العزيز بمضغة من أشلاء الفضائل الممزقة جمعتْها الهندسة ولم تجمعها الحياة! على أنكم قد تعبتم فيه كما قلتَ فهاته أتفرج عليه وأشتريه؛ لأبيعه في غير هذه المدينة لهواة التحف والعاديات المهجورة. إنهم قد يشترونه ويفاخرون به كما يشترون كل زهيدٍ ورخيصٍ من سقط الأشياء بالكثير الغالي من المال.

وجاءوني به فى مثل اللفائف التي تُطوَى على الجثث المحنطة؛ فاقشعر جسدى واستعذتُ بالله! ولم أتمالك أن أصيح بالرجل: يا هذا، إن أرخص قلب عندكم في هذا الدكان لأنفس من هذه المضغة التى لفقتموها من مائة قلبٍ مسكينٍ! ومددتُ يدي إليه فسقط ألف قطعة ... وسقطت معه عناية الحكمة والهندسة والتجارة والاختبار! وصرخ الرجل لا حول ولا قوة إلا بالله! يا ضيعة القلوب! يا حسرة على المال! يا خسارة الاختراع! ونظر إليَّ حانقًا وهو يتهدج: أيَسُرُّك هذا يا سيدي؟ أما كان لك فى هذا الدكان الواسع سلوة عن ذلك القلب الذي جشَّمنا صنعُه الأَمَرَّين وضيعتَه أنت علينا في لمحة عين؟

وحِرتُ في أمري لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل، وذكرتُ أننى جنيتُ على الرجل هذا الغرم الفادح في غير إساءةٍ أتى بها ولا منفعة أصابها، ومن العدل أن أعوِّضه عن الغرم أو أشاطره حمله، فطيَّبتُ خاطره وهدَّأتُ روعه، وقلتُ له إنني موفِّيك الثمن الذي تقترحه في ذلك القلب المحطم، فاقترح ما تشاء.

وكان الرجل قد تماسك وعاودته سكينة الشيخ ورصانة الساحر، فهش لي وتلطف في الاعتذار وقال: بورك فيك من رجل كبير القلب كبير الطلب. كلانا خاسر أيها الصديق بغير فائدة، ولستُ أقبل ثمنًا تبذله دون أن أعوِّضك عنه بعض العوض من بضاعتي الكثيره الباقية. هذه قلوب الدكان كلها فتأملها وتفرَّس فيها، وخذ لديك نموذجًا لكل طرازٍ يعجبك منها، ثم جرِّبها عندك أيامًا أو شهورًا وتريث في التجربة ولا تغلُ في الاشتراط، فلعلك بعد أن عاينت عاقبة القلب المحطم المجموع من شتى القلوب تخفف

من الغلواء، وتعثر بين أصنافنا على قلبٍ جميلٍ إن لم يكن هو بغيتك الموموقة فليكن هو أدنى إليها من سواه.

ونادى مساعده في الدكان: يا فلان، هات لصديقنا نموذجًا لكل صنفٍ منفوسٍ به على عامة الشراة، ودَعْه ينتقي منها الأقوم الأقوم، واحمل له ما ينتقي إلى مأواه.

قبلتُ الفكرة متفائلًا وحملتُ الهدية شاكرًا، ورجعتُ بالنماذج إلى مأواي وفي نيتي ألَّا أعود إلى الدكان إلا وفي يدي قلبٌ أختاره وأجتزئ به عما لا يُنال، وطفقتُ أنزل بالمعيار درجةً بعد درجةٍ عسى أن يعلو في نظري ما لم يكن عاليًا ويجمل عندي ما لم يكن بالجميل، حتى لقد خشيتُ أن أعكس الأمور فأسيغ الكريه وأمج السائغ وأرى البياض في موضع السواد والسواد في موضع البياض، ثم تمردتْ نفسي عليَّ فجأة فسئمتُ النزول بالمعيار إلى ذلك الحد، وسئمته وسئمته وأبَيْتُ أن أخدع نفسي بأشد من خديعة التاجر لي لو أنه عمد معي إلى التمويه والترويج.

قال جهينة: ولا أثقل عليك بتفصيل ما رأيت فإنه مريرٌ أليمٌ، وماذا أقص لك وماذا أدعُ من قلوبٍ عيوبها أثبت من فضائلها وأكاذيبها أصدق من حقائقها؟ فكلها من طينةٍ واحدةٍ في الصميم وكلها في الهوى سواء، ورُبَّ قلبٍ يحس ولا يعلم وقلب يعلم ولا يحس، وقلب آخر يحس ويعلم ولكنه لا يصفو ولا يقنع، ورُبَّ قلبٍ يحب ولا يقول وقلب يقول ولا يحب وقلب آخر يحب ويقول ولكنه يتكلم بالأحاجي وينطق بألف لسان! وجميعهم يلتقون في نهايةٍ تُخلف الآمال وتُخيِّب الظنون.

وعدتُ إلى الساحر ولم ينقضِ الأجل المنتَظر بيني وبينه؛ فتهلل واستبشر وحسب أنني ظفرتُ ببغيتي واكتفيتُ بما وجدتُ، فأسرعتُ إليه قبل الأوان المنظور فبدأني بالتحية وصاح بي: مبارك يا صديقي مبارك.

قلتُ بارك الله فيك على كل حال، وخجلتُ من مجابهته بالرفض لأول وهلةٍ؛ فبادرته بالكلام وعطفتُ عليه وأنا أقول: إنك قد أعطيتني هذه القلوب لأسعدَ بواحدٍ منها، فما قولك فيمَن قد عاف السعادة؟ ما قولك فيمَن يريد له قلبًا يستحق أن يشقى لأجله؟

فأدرك حقيقة الأمر وأطرق غير قليلٍ، ثم جعل يهمس بين شفتيه كأنه في حلم: أوَ تحسب الفرق كبيرًا بين قلبٍ يقدر على أن يسعدك وقلبٍ يستحق أن تشقى لأجله؟ كلاهما يا بني واحد في المعدن والقيمة، فإذا عُدمتَ هذا فقد عُدمتَ ذاك، وإذا انطويتَ على اليأس من أحدهما فلا أمل لك في صنوه الذي ينبت معه على أرومةٍ واحدةٍ.

قلتُ: فاقتراحٌ أخير أعرضه عليك، فهل لك في سماعه؟

قال: هات ما عندك فما في ذلك ضير.

قلتُ: قلبي هذا الذي بين جنبيَّ، قد غنيتُ عنه الآن فخذه إليك، واصنع به ما أنت صانع.

وكأنما بوغت بهذا الاقتراح فبدت الحيرة في عينيه وقال: بِكَم؟!

فأجبته كما يجيب الصدى؛ بِكَم؟! واستولت عليَّ سخرية كالغضب فنظرتُ إليه متعجبًا وقلتُ له متهكمًا: أأنت ساحر؟ أأنت تاجر؟ بِكَم؟ بِكَم ماذا؟! أيُّ شيءٍ يساوي قلب لا يجد بين هذه الخلائق التي لا حصر لها قلبًا واحدًا يستحق أن يشقى لأجله؟ خذ يا شيخ هذا القلب الذي لا يساوي تعب حمله، خُذه عني يا شيخ وأنت المغبون! خذه واذكر قول ابن سينا:

إنِّي عظمتُ فليس مصرٌ واسعي لما غلا ثمني عدمتُ المشتري!